العرب
السبت 2020/07/11
السنة 43 العدد 11758

آن الأوان لكي نكفّ عن الاعتقاد بأننا خير أمّة

الباحث حمادي المسعودي: مقارنة الأديان تفتح باب التسامح وقبول الآخر

التسامح طريق وحيد للمستقبل

لقد تغير العالم وتمازجت الثقافات أكثر فأكثر وتلاقحت الأفكار من شرق الأرض إلى غربها، ما يبشر بولادة عالم جديد أكثر تماسكا، لكن المفارقة أن هذا الواقع الجديد رافقه ظهور موجات تطرف هنا وهناك، ممن يرفضون الآخر إما خوفا على ثقافاتهم أو انغلاقا على ذواتهم أو جهلا بحتمية التطور. ومن هنا كان لا بد من البحث في طرق تحقيق الانفتاح على الآخر وخاصة من خلال تجاوز حواجز الاختلاف الديني.

محمد الحمامصي
كاتب مصري

أكد حمادي المسعودي، الباحث المتخصص في الدراسات المقارنة للأديان، أنّ جهل "الأنا" لدين "الآخر" والتعصّب الديني، والقول بالحقيقة المطلقة، وعدم الاعتراف بحقّ الاختلاف في الرأي والاعتقاد، كلّها عوامل مغذّية للتطاحن والإرهاب؛ وإنّ ما شهده تاريخ البشرية قديماً وما يشهده في بداية القرن الحادي والعشرين من إرهاب دينيّ كان ناتجاً عن غياب هذه القيم: معرفة دين الآخر والتسامح الديني والقول بنسبية الحقيقة والاعتراف بحق الاختلاف في الرأي والمعتقد وبحق الإنسان في الحياة.

وقال في كتابه "الظاهرة الدينية من علم اللاهوت إلى علم الأديان المقارن" إنه قد "آن الأوان لكي نكف عن الاعتقاد بأنّنا 'شعب الله المختار'، وبأنّنا خير أمّة أخرجت للناس، وبأنّ كتابنا المقدّس هو القسطاس به نزن الكتب المقدّسة الأخرى، وبأنّ نبينا هو أفضل الأنبياء في الوقت الذي صرنا نشاهد فيه، في أغلب البلدان الإسلامية، الأرواح تُزهق والرؤوس تُجزّ وتُرْفَعُ في الأيادي أو تُعلّق، والمعالم الأثرية الشاهدة على حضارة الإنسان عبر التاريخ تُهدم... وكان كلّ ذلك يقع مسوَّغاً ومُبَرَّراً بعبارة 'الله أكبر..'. إنّ الأديان لم تأتِ للدمار والخراب والموت، وإنّما جاءت بالحياة والأمل وتعمير الكون وبالحفاظ على حياة الإنسان في جسده وعرضه وماله".

ضد انغلاق الذات

يستهدف المسعودي في كتابه، الصادر عن مؤسسة مؤمنون بلا حدود، الارتقاء بدراسة المسألة الدينية خاصّة، والمسألة الحضارية عامّة، إلى مرتبة الدرس العلمي الذي يتأسّس على رؤية علمية موضوعية ومنهج واضح المراحل ومفاهيم دقيقة، ومن ثم وزّع الكتاب إلى أربعة فصول تدور كلّها على علم الأديان بداية بمدخل نظري ميّز فيه علم الأديان المقارن من علم اللاهوت وعلم الأديان، وركّز على الأسس والشروط التي ينبغي أن تتوافر في العلم المقارن للأديان. ونبّه الباحث إلى ما دخل المصنّفات العربيّة والإسلامية والدراسات الاستشراقية من نقائص.

أمّا الفصول الثلاثة اللاحقة فبُنيت على عمل إجرائيّ تطبيقي، يدرس حضور العهد القديم ولاسيما أسفار التوراة في النّصوص الدينية الإسلامية قرآناً ونصوصاً حافة، ويعالج استحضار القرآن وكتب التاريخ والقصص للنصوص الدينية المسيحية القانونية وغير القانونية، فبيّن في الفصلين كيفيات التفاعل بين جميع هذه النصوص والتحويلات التي طرأت على النصوص الأصول بعد حلولها في النصوص الدينية اللاحقة. أمّا الفصل الرابع فاتّصل بالبحث في متخيّل ظاهرة النبوّة وعالم ما بعد الموت بنعيمه وجحيمه. فدرس تمثّلات النصوص المقدّسة خاصّةً، والنصوص الدينية عامّةً للإشكاليّتين، ومختلف الصّور التي رُسمت لهما. وكنّا نروم تبيّن البناء المتخيّل الذي أقامه الإنسان للنبوّة وللعالم الأخروي والعناصر التي استحضرها لإقامة هذا البناء الضخم وذي الموادّ المتنوّعة.

وأسف المسعودي على أنّ البحوث المقارنة وكذلك التعليم المقارن بين الأديان والثقافات المختلفة ليسا واردَيْن الآن في مجال التقسيم الشائع للموضوعات الدراسية ولا في برامج التعليم الثانوي ولا حتى الجامعي. كلّ جهة تكتفي عموماً بتدريس دينها أو تراثها كأنّه حقيقة مطلقة ولا شيء غيره في العالم. ولهذا السبب يستطيع المتطرّفون استخدام هويات مرقعة أو "قيم" موضوعة بمنأى عن أيّ تحليل نقدي من أجل خلع المشروعية على الحروب المتكرّرة بين أعداء في المجتمع نفسه، أو بين دول مختلفة على الصعيد العالمي "انظر ما يحصل بين السّنّة والشيعة مثلاً، أو بين أميركا والقاعدة وطالبان".

وشدد على أن انغلاق الذات ودورانها على دينها وتراثها يؤدّيان إلى ضيق أفق التفكير، وإلى التعصّب الأعمى، ومعاداة "الآخر"، في حين أنّ الانفتاح على دين "الآخر" ومقارنته بالأديان الأخرى يؤدّيان إلى سعة المعرفة وإلى التسامح وقبول المخالف في الملّة. وقال "إنّ العرب والمسلمين مطالبون اليوم بالمعرفة الجديّة والمعمّقة للديانات الأخرى، ولاسيما اليهودية والمسيحية، وما لم ينهضوا بذلك يكونون قد وضعوا سدّاً منيعاً أو حجاباً سميكاً بينهم وبين الإسلام عامّة، وبينهم وبين القرآن خاصّة، ولن يفهموا الفهم العميق الكثير من المقاطع القرآنية؛ بل إنّنا نذهب أبعد مدى ممّا ذكرنا، فنقول إنّ المسلمين لن يفهموا نصّهم المقدّس ما لم يقرؤوا النصوص المقدّسة السابقة القانونية وغير القانونية؛ لأنّ القرآن يستحضر جميع هذه النصوص في مقاطع تطول وتقصر وبطرق مختلفة، منها ما هو خفيّ، ومنها ما هو ظاهر".

ويرى المسعودي ضرورة استفادة الدراسات العربية والإسلامية من مناهج العلوم الإنسانية بصفة عامة، ومن منهج علم الأديان المقارن بصفة خاصّة، بعد أن أضحى من اليقين أن النصّ القرآني والنصوص التي دارت عليه في مختلف الحقول المعرفية نُصُوص جامعة احتوت داخلها على روافد نصّية مختلفة المرجعيات والثقافات. وقد صار من اليقين أيضاً أنّ فهم النصّ القرآني والنصوص الحوافّ يقتضي العودة إلى نصوص سابقة تاريخياً للتراث العربي والإسلامي لتبيّن النصوص المستحضرة من ثقافات أخرى وكيفيات استحضارها والتحويلات التي أُلحقت بها لتنسجم مع طبيعة الثقافة التي انتقلت إليها تلك النصوص.

ويضيف "إنّ هذا العامل يقتضي من قارئ هذه النصوص ومن المقارن بينها أن يكون عالماً بنصوص المخالف له في الملّة، عارفاً تفاصيلها، مُلمّاً بمكوّناتها علمه بنصوصه ومعرفَتَه لتفاصيلها وإلمامَهُ بمكوّناتها. ومن شأن هذا العلم وهذه المعرفة وهذا الإلمام أن يُساعد القارئ على فهم نصوصه الدّينية، فيدرك أنّ الأديان يستعير بعضها من البعض الآخر، وأنها تشتمل على قواسم مشتركة دون أن ينصهر أحدها في الآخر، وأنّ الحقيقة الدينية ليست مطلقة، لذلك لا يمكن أن تكون مقصورة على دين دون دين".

ويتابع أن "الأديان كلها صحيحة، وأنّ كلّ دين يحمل جوانب من الحقيقة وليس كل الحقيقة. ومن شأن هذا التصوّر أن يجعل قارئ النصوص المقدّسة متفهّماً لما يثوي داخلها من تشابه وتباين دون السقوط في الأحكام المعيارية المجّدة لدين الذات والمستهجنة لدين 'الآخر'. وهذا يمثّل أحد الأسس، التي ينهض عليها العلم المقارن للأديان، وهو الحياد الديني الذي بغيابه تغيب الدراسة العلمية الموضوعية للمسألة الدينية".

الدراسة المقارنة

يشدد المسعودي على أن العلم المقارن للأديان يقتضي من القارئ أن يُنصت إلى ما يمكن أن ينطق به النصّ دون تعسّف عليه بإسقاط أفكار استُدعيت من خارجه، ودون أن يكون حاملاً لأيّ خلفية أيديولوجية من شأنها أن تؤثّر سلباً في توجيه قراءة النصّ نحو فهم مُسْبَق يحمل دلالة مخصوصة نشأت في ظروف وسياقات تاريخية وثقافية مختلفة عن الظروف والسياقات التاريخية والثقافية المعيشة اليوم، فأنظمة الرقّ والاستعباد والجزية وعدم المساواة بين الرجل والمرأة، وتحكّم المؤسّستين الدينية والسياسية في حرية الإنسان، واستناد البشرية في تنظيم شؤونها إلى النصوص الشرعية، أضحت مرفوضة منذ ما يزيد على القرنين بسبب التقدّم الذي حقّقته البشرية في مجال الحقوق والحريات الفردية والجماعية وحرية المعتقد.

> تحكم رجال الدين بالأفراد بات مرفوضا بسبب التقدّم الذي حقّقته البشرية في مجال الحقوق والحريات الفردية والجماعية

وقد تبيّن لنا أيضاً أنّ البحث في المكوّنات النصية/الطبقات النصّية التي منها نُسجت الأسفار المقدّسة يمثّل محوراً من المحاور الرئيسة في الدراسات المقارنة، لكنّ البحث يتجاوز هذا المستوى؛ لأنّ المهمّ في هذه الدراسات ليس الاكتفاء بتبيّن المصدر لهذا النصّ أو لذاك فحسب؛ بل الأهمّ من هذا هو معرفة كيفيات حلول هذه النصوص الوافدة في الثقافة المتقبّلة أو المنقول إليها. وقد أبرز لنا المنهج المقارني أن الثقافة المتقبّلة للنصوص الوافدة قد أدخلت تعديلات وتحويلات عديدة على هذه النصوص حتى تنسجم المقاطع الوافدة مع خصائص الثقافة المنقول إليها.

ويشير إلى أن البحث المقارني أبرز أنّ الإنسان خلق مقدّساته ومعبوداته آلهة وطقوساً شبيهة به في الفكر والشعور والرغبة، فكان هذا الخلق متأثراً بمختلف الظروف التي ابتُدع فيها، وبذلك تحوّلنا من مقولة: إنّ الآلهة "خلقت الإنسان على صورتها وصوّرته فأحسنت صورته" إلى القول "إن الإنسان خلق آلهته على صورته فأحسن صُوَرَها"، ومن مقولة الآلهة المُنْعمة على البشر بخيراتها إلى مقولة الإنسان المسبغ على الآلهة أنفس القرابين والهدايا.

وقد أكّد علم الاجتماع الديني منذ إميل دوركايم أنّ الدين فعل جماعيّ اجتماعي، ومثل هذه الأطروحة تؤكّد أن صناعة المقدّس هي من إنتاج الإنسان في الأرض، وليست من وحي الآلهة في السماء، لذلك كان تصوّره لمعبوداته موصولاً بالواقع اليومي المعيش، فالآلهة تطلب القرابين الثمينة، وتفرض تقديس الإنسان واحترامه لها "أي: الآلهة"، وتشعر بالرّضا والغضب، وتعد وتتوعّد، وتعاقب وتُثيب، وتسكن في الأرض؛ ثم رفعها الإنسان إلى السماء بعد بلوغه درجة معيّنة من التفكير الذهني المجرّد.

محمود سعيد يؤجل موته ليودع الإسكندرية وكليوباترا

القاهرة – تتناول رواية "الليلة الأخيرة في حياة محمود سعيد" للكاتب والشاعر المصري أحمد فضل شبلول الساعات الأخيرة في حياة الفنان التشكيلي المعروف محمود سعيد، أثناء لحظات احتضاره في 8 أبريل عام 1964، حيث حضر له ملك الموت ليقبض روحه، ولكنهما اتفقا على أن يؤجلا فعل الموت لعدد من الساعات يودع فيها الفنان ألوانه وبحره وشطآنه وسماءه في مدينة الإسكندرية التي ولد فيها في 8 أبريل عام 1897 وعاش فيها طيلة حياته عدا بعض السنوات القليلة التي قضاها في القاهرة أثناء تعيين والده محمد سعيد باشا رئيسا لوزراء مصر، وفي باريس أثناء استكماله لدراسة الحقوق وتعلم الرسم، وبعض المدن الأوروبية الأخرى التي كان يرتادها ويزورها لمشاهدة متاحفها وآثارها الفنية المختلفة.

وضمن بنود الاتفاق أن يعلّم الرسام فن الحياة لملك الموت الذي اختار له الفنان اسم "مَبهَج". وبعد خروجه من حجرة المرض إلى عالم الإسكندرية الشاسع بلونه الأزرق، يذهبان إلى مرسم الفنان في شارع سعد زغلول ليشاهد "مَبهج" لوحات الحياة وأيضا لوحات الموت التي أبدعها الفنان ولوحات أخرى لفنانين عالميين آخرين.

وتتوالى فصول الرواية، الصادرة مؤخرا عن سلسلة "روايات الهلال" بالقاهرة، نزولا ابتداء من الرقم 16 إلى الرقم 1 حيث يسلم الفنان روحه لملك الموت الذي لم يستطع تأجيل أجل الفنان لحظة واحدة حسب المشيئة الإلهية.

وأثناء لحظات احتضار الفنان تصبح ذاكرته حديدية وينفذُ بصره لما وراء الأشياء وما وراء الزمن، فيتذكر لمحات من حياته وشذرات من أيامه، مع بعض الشخصيات العامة والمؤثرة مثل الملك فاروق والملكة فريدة (ابنة شقيقته) ويتذكر علاقته بثورة 23 يوليو والرئيس جمال عبدالناصر وعضويته في المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب، وحصوله على جائزة الدولة التقديرية للفنون كأول فنان تشكيلي مصري يحصل عليها، ووسام الجمهورية من الطبقة الأولى عام 1960.

كما يتذكر حفلات حضرها لعبدالحليم حافظ في الإسكندرية، ويتذكر شخصيات أخرى تعامل معها مثل أمير الشعراء أحمد شوقي، والفنان منير مراد، والمخرج السينمائي محمد كريم، والأديب يوسف السباعي وآخرين. ويرى ما سوف يحدث للإسكندرية مستقبلا باعتبارها مدينة تقع على البحر المتوسط، بعد انهيار جبل أتنا بجزيرة صقلية، وكيف تصد المدينة التسونامي القادم لها من جهة الشمال.

ويستذكر سعيد علاقته بالفنانين التشكيليين محمد ناجي، ثم سيف وأدهم وانلي وكيف تتلمذا على يديه، وتوقع لهما مستقبلا باهرا في عالم الرسم والتشكيل، ووصفهما له بأنه يشرب هواء الإسكندرية، ويختلط بتراب ترعة المحمودية، ويتعبد بروحانية غريبة في لذة الشارع المصري، ويطل من أعلى الامتلاك إلى أسفل الفقر ليرسم بنت البلد، وعندما يتكلم يلتقط من الصدق التواضع، ومن الكبرياء النقاء.

وغير ذلك من سيرة الشخصيات وسيرة اللوحات التي تراوده أثناء سيره على كورنيش الإسكندرية من الشاطبي وحتى المرسي أبوالعباس حيث ولد في تلك المنطقة الشعبية التي لها طقوسها الروحانية الخاصة، وسوف يموت هناك.

كما تظهر له الملكة كليوباترا وتعاتبه على أنه لم يرسمها في لوحة شاهقة، ثم تظهر له الملكة شجر الدر وتعاتبه أيضا على أنه لم يرسمها مثلما رسم ليوناردو دافنشي لوحة "الموناليزا" فدخلت كل بيت، ثم تظهر له مجموعة من ملكات مصر القديمة، تتقدمهن الملكة مريت نيت أول ملكة حكمت مصر خلال السنوات 2939 – 2929 قبل الميلاد، وكلهن يرغبن في أن يرسمهن الرسام.

> هذه هي الرواية الثانية التي يكتبها أحمد فضل شبلول عن الفنان محمود سعيد بعد روايته «اللون العاشق»

كما يلتقي الفنان شخصيات روائية ظهرت في أعمال صديقه نجيب محفوظ مثل عيسى الدباغ في "السمان والخريف" ورؤف علوان في "اللص والكلاب" وغيرهما.

وقد أشار الفنان إلى أن نجيب محفوظ تعلم تذوق الفن من خلال لوحاته حيث صرّح محفوظ: لقد كان محمود سعيد هو الذي عرّفني على عالم الفن التشكيلي، وقد تعرفت على أعماله، ولوحاته ما زالت منطبعة في مخيلتي بألوانها مثل "بنات بحري" و"بائع العرقسوس" والكثير من البورتريهات النسائية التي اشتهر بها والتي استطاع فيها أن يجسد الجمال الشعبي، كما لم يفعله أحد من قبله.

وكان الفنان يظن أن مَبهج من الممكن أن يؤجل ميعاده، ولكن ملك الموت يظهر في الوقت المحدد والمكان المرصود ويلقي الكلس الأبيض على وجه الفنان، الذي كان يشك أنه صورة رسمها لنفسه تسير على الكورنيش وصولا إلى مسجد المرسي أبوالعباس، بينما جسده الأصلي ممدد هناك في حجرته بفيلته بجناكليس التي أوصى بأن تتحول إلى مركز فني يحمل اسمه بعد رحيله عام 1964، وهو ما حدث فعلا.

يذكر أن هذه هي الرواية الثانية التي يكتبها أحمد فضل شبلول عن الفنان محمود سعيد، حيث صدرت في العام الماضي روايته "اللون العاشق" عن دار الآن ناشرون وموزعون بالأردن، وفيها يتناول الكاتب لوحة "بنات بحري" التي رسمها سعيد عام 1935، ويتوقف الزمن الروائي عند ذلك التاريخ مع استدعاءات فنية ورمزية لما قبل هذا التاريخ.

وقد أورد المؤلف في نهاية الرواية أسماء عدد من الكتب المرجعية المؤلّفة والمترجَمة التي رجع إليها واستفاد منها في إنجاز "الليلة الأخيرة في حياة محمود سعيد" التي تعد الرواية الرابعة في مؤلفات أحمد فضل شبلول الروائية، حيث سبق له أن أصدر: رئيس التحرير، والماء العاشق، واللون العاشق، وتحت الطبع روايته الخامسة "الحجر العاشق".

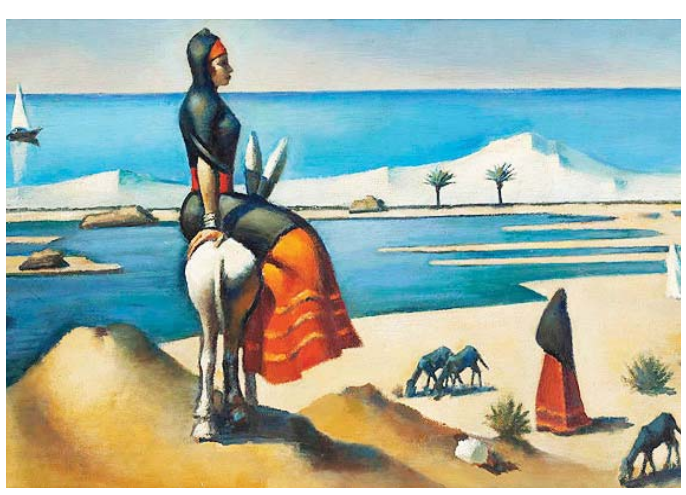

من رؤى محمود سعيد